الصّحافة: عمار فرحات رسام الشعب... فنان الذاكرة

تمر هذه الأيام أربعة وعشرون سنة على رحيل الرسام الكبير عمار فرحات كان ذلك في مارس سبع وثمانين وتسع مائة وألف، ولد في باجة سنة إحدى عشر وتسع مائة وألف كان عصاميا، انتقلت عائلته الى تونس وهو في السابعة من عمره، وقد احتفظ في ذاكرته بالمشاهد الريفية التي لم تفارقه طوال حياته لا شيء يوحي بأن عمار، ذلك الطفل الصغير سيتخذ الرسم مهنة، الرسم هذه اللغة الفنية الغربية بالأساس ـ في شكلها المسندي ـ، والتي لم تكن لها تقاليد في البلاد، «لا شيء»، تقول صوفي القلي، الناقدة الفنية، «غير الإقتناع المبكر واللامحدود بأنه ولد رساما»... وقد صرح عمار لعزالدين المدني ما يؤكد ذلك :« كانت سنة خمس وثلاثين وتسع مائة وألف في حياتي نقطة نور كنت حائرا في أمري. كنت أحس أشياء غامضة في صدري لا أقدر على التعبير عنها. كنت قلقا، مضطربا، فزعا، كنت أريد أن أتنفس... أخيرا، اشتريت صندوقا من الألوان. وكان لي الشرف بأن أحمله معي دائما.
وعدت نفسي وعدا قاطعا بأن أكون جديرا بفن الرسم، طاهرا من جميع الأدران طوال حياتي، محترما الفن حتى مماتي...».
فعلا، كان عمار شهما، وديعا، حسن المعاشرة، غير متلهف على المادة حتى أنه كان يلوم عبد العزيز القرجي على بيع لوحات بثمن باهظ.
وعمار لم يكن يجادل كثيرا كما لم يكن عنيفا إلا حين يضطر لذلك، كما فعل مع «الباندي» علي شورب، الذي كان ناوشه ذات مرة في الأربعينات، حيث سمع أنه «صحة أبدان» ووجب تلقينه درسا غير أن عمار نصحه بالإبتعاد عنه فلم يستجب، عندها، أخذه بيده اليسرى ورفعه عاليا ثم صفعه بيده اليمنى ولوح به على بعد مترين قام شورب وبايعه ثم انصرف كان ذلك في نهج القلش (باب سويقة أين كان يقطن عمار).
كان عمار مولعا بالموسيقى الشرقية والكلاسيكية الغربية: موزار وبيتو، وكان يملك الكثير من الإسطوانات، وقد رسم خطيا بعض نجوم الغناء في الثلاثينات مثل عبد الحي حلمي.
أول معرض قام به عمار فرحات كان في بهو جريدة «البتي ماتان» بنهج باش حامبة حاليا سنة ثمان وثلاثين من القرن الماضي وكان قبلها قام بعرض رسوم مائية بالمدينة العتيقة، وقد قوبل معرضه بالإعجاب من قبل ألكسندر فيشي مدير الصالون التونسي وجاك ريفو، وقد فاز بعد مشاركته بهذا الصالون بجائزة الرسم الخاصة بالشبان ونال ما قدره مائة ألف فرنك فرنسي وهو مبلغ محترم جدا في ذلك الوقت كما حصل على سفرة الى باريس عن طريق البحر لاكتشاف العالم الغربي. وقد تمكن بذلك من مشاهدة رسوم براك وماتيس ودوران والإنطباعيين مباشرة في متاحف باريس.
وكانت لديه قدرة كبيرة على استيعاب التقنيات وأساليب التركيب، وقد استفاد عمار من ذلك...
وكان متفردا في طريقة استغلاله للفضاء فتجد عشرات اللوحات بتكوين يشتمل على ثلاثة شخوص يحسن وضعها في فضاء اللوحة في توازن مريح للمشاهد.
وقد تناول عمار مواضيع عديدة أغلبها يعالج الحياة اليومية للعمال والكادحين، والريف التونسي، وهندسة المدينة العتيقة، والحياة اليومية داخل الدور كما اهتم بأجواء الأسواق وبالجالية الزنجية وحفلاتها التقليدية الزاخرة بالألوان وقد تساءل عزالدين المدني :«كيف استطاع عمار أن يتجنب مزالق الرسم الإستعماري وأن يبرز الشخصيات دون طابع الفلكلور؟».
والفارق بين رؤية المستوطنين للإنسان التونسي ورؤية عمار فرحات يتمثل في أنهم يمثلون الشخوص التونسيين كحفنة أو غبارا من البشر يرى من بعيد بينما الرسام التونسي الواعي انذاك يرسمهم من قريب، يرسم ملامحهم وإنسانيتهم.
رسم عمار زعماء الحركة الوطنية في الثلاثينات محمود الماطري والحبيب بورقيبة، وفي انتفاضة الشعب في التاسع من أفريل ثمان وثلاثين وتسع مائة وألف رسم عمار فرحات مشهدا يمثل نموذجا من العدوان الفرنسي على الشعب.

لا يمكن أن نرسم بالكلمات صورة عمار فرحات دون الرجوع الى نص عزالدين المدني الرائع وهو يصف الرجل :«الرجل طويل، عريض الكتفين، منحوت القسمات: العين غائرة، الأنف منجور، الفم داخل قليلا، الذقن بارز بعض البروز، إذا سار، مشى مشية الكادحين، كأنه يحمل عبء الدنيا، لذلك انحنى ظهره انحناء لا يلاحظ، إذا جلس في المقهى بين أحبابه تحسبه أحد نحوت «جيا كومتي صامتا، كثير الصمت، كأنه يصر على الصمت. ويده خشنة، قد عركت العجين في أول شبابه لتصنع الخبز، وجمعه كبير قوي، قد لاكم به في المقابلات الرياضية عندما اشتد ساعده».

أما عن قراءة أعمال عمار فرحات، فالمشاهد يحس أنها أنجزت بمعرفة دقيقة لتقنيات الفن الكلاسيكي والإنطباعي حيث تتراكم المساحات اللونية ويتوزع الضوء في الأمكنة المناسبة، وإن بعض تراكيب لوحات عمار لا يمكن تصنيفها في أي اتجاه أو أسلوب فهي جمعت عدة أساليب مثل لوحة التيجانية التي أنجزها سنة ثلاث وأربعين يسلط فيها الضوء على العروس في الربع الأعلى من اللوحة فيما تجلس مجموعة كبيرة من النساء المنشدات في شكل حلقة في الأسفل.

تأثر عمار بالإنطباعيين وما بعدهم بإنجاز عديد اللوحات منها «الطبيعة الصامتة» بالأسلوب التكعيبي ومشاهد طبيعية على طريقة بوشارل وذالك ليثبت فقط أنه قادر على مجاراة هذه التقنيات والرؤى وسرعان ما يتخذ من إحساسه مرجعا ويعود لطريقته الخاصة المبتكرة في رؤية العالم المادي والباطني. من أفضل أعمال عمار «لقاء العروسين» التي تعددت فيها الشخوص وتناسقت الألوان وبرزت قدراته في خلق الأبعاد في مشاهد احتفالية تقليدية.

عمار فرحات من الفنانين الذين كانوا ضحية لتدليس لوحاتهم، وقد ينشر الرواق تفاصيل عن هذه الجرائم التي تدنس التراث التونسي والمدلسون يعرفهم القاصي والداني ولا زلنا ننتظر تدخل السلط لإيقاف النزيف.